**المحاضرة الأولى**

هويَّة الأمة العربيّة الإسلامية في مواجهة

التحدّي لعقيدتها وقيمها

الأستاذ الدكتور عدنان محمد زرزور

كلية الشريعة – جامعة قطر

السبت 16 شوال 1412هـ، - 18 نيسان 1992م

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد :

أبدأ أولاً بالملاحظات التالية:

**الملاحظة الأولى:** لا نذهب في تفسير "الهوية" الواردة في عنوان المحاضرة - بل في عنوان هذا الموسم الثقافي - إلى أكثر من كونها تعبيراً عن "ذاتية" هذه الأمة، أو "شخصيتها" المتجذرة عبر عصور التاريخ .

وهذه "الشخصية" بدورها أساسها ومنطلقها "الثقافة"، أو هي بعبارة أدق: صورتها التطبيقية المكافئة والمساوية.. تأسيساً على الفكرة القائلة: إن الثقافة تساوي الشخصية بوجه عام، ومع ملاحظة أن الحديث منصب على تحديات الثقافة الغربية لشخصية الأمة العربية الإسلامية - أي لثقافتنا - بوجه خاص.

وفي جميع الأحوال، فإننا نذهب في تعريف "الثقافة" - وعلى الرغم من تعريفاتها، أو مفاهيمها التي تعد عند الدارسين والباحثين بالعشرات -إلى هذا المفهوم العام والشامل، الذي يأتي لحُسن ِالحظ منسجماً مع عنوان هذا الموسم فيما أقدر. الثقافة عندنا هي المعارف التي تتعامل مع الإنسان، أو التي يكون "موضوعها" الإنسان باعتباره فرداً أو بوصفه عضواً في جماعة - ونميزها بذلك عن "العلم" التجريبي الذي يتعامل مع الكون أو الطبيعة، قال تعالى: (وَفي الأرْض ِآياتٌ لِلمُوقِنينَ، وَفي أنـْفـُسِكـُمْ أفـَلا تـُبصِرُون)([[1]](#footnote-1))  وقال تعالى: (سَنـُريـِهم آيَاتِنـَا في الآفـاق وَفي أنـْفـُسِهم)([[2]](#footnote-2)).

ولهذا، فإن الثقافة في حقيقتها سلوك، أو هي نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة، كما يقول الأستاذ المفكر مالك بن نبي رحمه الله؛ بمعنى أنها وإن كانت من الوجهة النظرية "معارف" تدوّن وتـُلقـْن أو تتداولها الأجيال في سياق خفيّ وعميق ومعقـَّد - تلعب فيه اللغة أو

اللسان دوراً حاسماً - فإنها من الوجهة العملية مملوك وممارسة، لأنها ليست "شيئا" مفصولاً عن الإنسان، بل إن موضوعها هو الإنسان نفسه كما قلنا، ومن ثم فإن تعامله معها أو مع عناصرها المتشابكة والمعقدة سوف ينعكس على سلوكه، ويحدد له من ثـَمَّ سمات "شخصيته". وهذا هو أساس الربط - الذي أشرنا إليه - بين "الثقافة والشخصية"، من جهة، وأساس التمييز - الذي تجب ملاحظته - بين أنوع "الشخصيات" التي تتوازعها ثقافات الأمم والشعوب... في خريطة ثقافية واضحة السمات، من جهة أخرى. ومن بينها، أو على رأسها: الشخصية الأوروبية، والثقافة الغربية، بطبيعة الحال.

**الملاحظة الثانية:**

إن التعبير عن هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة تحديات الثقافة الغربية- أو بُعيد عصر الصدام مع الحضارة الأوروبية- أخذ شكل الاتجاه.. من خلال أن كثيراً من الشرائح المثقفة سقطت في امتحان التحدي- وهي تظن غير ذلك بطبيعة الحال- فتنكـَّبت ثقافتها، وأضاعت، أو كادت، معالم شخصيتها.. كما فعل الماركسيون وغلاة الفكر القومي والعلماني.. كما سأوضح بعد قليل.

وهكذا صار الحديث عن الإسلام أو عن الهوية الإسلامية حديثاً عن اتجاه وسَطَ هذه الاتجاهات العلمانية أو الماركسية- المنقولة أو المستعارة من "الثقافة الغربية"- أو بعبارة أدق: من تاريخ المجتمعات الأوروبية؛ بوصف هذا التاريخ- في مرحلة معينة أو في عصر النهضة- هو الذي أفرز هذه المذاهب والشعارات والمقولات.

وضاعف من خطورة هذه المسألة، وما يزال يضاعف حتى الآن، أن الذين تقدموا للتعبير عن هذه الهوية الإسلامية، وقع الكثير منهم- بخاصة في نطاق الدعوات التي غلب عليها الطابع الفئوي أو الحزبي، أو التي وقع أصحابها في ردود الأفعال- إما في خطأ التصور، أو في خطأ

الممارسة. وفي الوقت الذي كرّسوا، بهذه الأخطاء، مقولة: إن الإسلام اتجاه وليس بهوية! فإن أصحاب الاتجاهات الأخرى بالغوا، أو تعمدوا، في حل هذه الأخطاء على الإسلام أو على الهوية ذاتها! وليس على دعاتها والمعبّرين عنها.. أو المنادين بضرورة إعادة صياغة الإسلام لحياة الجماعة مرة أخرى .

أقول: لقد حان الوقت بعد هذه التجارب المريرة، والهزائم المتلاحقة التي لحقت بالأمة العربية الإسلامية، وما تزال تلحق بها حتى اليوم، وبعد هذه التراجعات الحادّة التي تمت في محيط الثقافة الغربية نفسها.. أن يعود التعبير عن هذه الهوية مطلباً قومياً ينتظم جميع فئات الأمة، وجميع شرائحها.. على اختلاف مشاربهم، ومناحي تفكيرهم.. بل على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم؛ بوصف الثقافة العربية الإسلامية... أو بوصف الإسلام يمثل المشروعية العليا - كما يقال بلغة القانون- في حياة العرب والمسلمين أجمعين.. الذي لا يمكن لهذه الأمة أن تتجمع صفوفها، وتتوحد كلمتها على غيره، أو في غير رحابه مرة أخرى.

وما لم نصل إلى الاتفاق على سمات هذا المشروع الحضاري العربي الإسلامي.. سبيلاً للوحدة والنهضة والتقدم؛ فإن عصوراً قادمة من الذل والهوان سوف تنتظرنا لا قدّر الله!

**الملاحظة الثالثة:**

إنني سوف أتناول في هذه المحاضرة بشيء من التفصيل: تحدي الثقافة الغربية للعقيدة الإسلامية، أو للعقيدة والفكر الإسلامي. أما تحدي هذه الثقافة لقيم الأمة التي عُطفت في عنوان هذه المحاضرة على العقيدة - فإنْ أريد بها القيم الكبرى التي شكـّلت روح الحضارة العربية الإسلامية.. أو مبرراتها التي دارت عليها عجلتها في التاريخ؛ فإنها- أي هذه القيم،

كالمساواة، والعدل، والحرية - يمكن أن تسلك ضمن التحدي الثقافي بمعناه العام أو الشامل.. تأسيساً أو انطلاقاً من الفروق بين الثقافتين العربية والأوروبية أو بين الحضارتين العربية الإسلامية، والأوروبية المسيحية.

وإن أريد بهذه القيم: القيم الأخلاقية المؤسسة على فكرة الخير والشر، والحسن والقبح.. أو المنطلقة من قاعدة الحلال والحرام.. كالصدق، والشجاعة، والكرم.. والعفة والحجاب وبرّ الوالدين... وسائر الروابط الأخلاقية للأسرة على سبيل المثال؛ فإنني أكتفي بالإشارة إلى هذه القيم في هذه الملاحظة فأقول: إن هذه القيم يمكن إضافتها حقيقة ًإلى العقيدة أو إلحاقها بها.. على أساس الثبات الذي تتمتع به مع أحكام العقيدة ومسلـّماتها التي جاءت في الكتاب والسنـّة. وربما كذلك على أساس الروابط القوية التي تشد هذه القيم إلى العقيدة .

وقد نفعل ذلك طلباً للاختصار على أقل تقدير إذا قيل إن هذه القيم لا تتمتع بمزية إضافية في كلا هذين الأساسين أو السببين السابقين على سائر عناصر الثقافة الإسلامية أو مكوناتها.

إن التحدي الذي قام في وجه هذه القيم من قبل الثقافة الغربية، وبخاصة في حقول الأخلاق والتربية والاجتماع، جاء من خلال (الروح العمانية) بوجه عام، ومن خلال (فكرة التطور) التي حكمت أكثر من حقل من حقول الثقافة والعلم جميعاً.. بوجه خاص.

وغني عن البيان أن هذه الفكرة ارتبطت بالنزعة المادية، أو بالانطلاق في دراسة الإنسان والمجتمع من خلال (الواقع) -أو كما تـُدرس الطبيعة- الأمر الذي مهـّد لسقوط فكرة الجانب المعياري في الأخلاق والاجتماع، أوفي النسق القيمي بوجه عام، الذي أفضى في نهاية المطاف إلى القول بنسبية الأخلاق العُرفي، وإلى التشكيك في ثبات الفضائل وإلى إنكار وجود علم الأخلاق النظري.. وإلى الحديث عما هو كائن.. لا عما يجب أن يكون.. إلخ.

ويمكننا اليوم ملاحظة أثر هذا السقوط أو الإنكار في أبرز مشكلات العالم المعاصر، وأعني بها المخدرات أولاً، ثم الأمراض الناتجة عن الانحلال.. التي نعتقد بهذه المناسبة أن علاجها يجب أن يلتمس أول ما يلتمس في إعادة النظر بهذا النمط الثقافي السائد، وما أشاعه من تلك المفاهيم... وسائر المفاهيم الأخرى، كالكبت، والحرية، وصناديق الانتخاب، وحق التشريع... إلخ.

**الملاحظة الرابعة والأخيرة**:إن التحدي الذي قام في وجه هوية الأمة في جانبها العقدي - بوصف هذه الهوية تعبيراً عن ذاتية الأمة، أو عن شخصيتها المتجذرة عبر عصور التاريخ، كما أشرنا في الملاحظة الأول- يوحي لنا بضرورة التفريق بين العقيدة التي تشكل ضمير الأمة، والعقيدة التراثية التي انحدرت إلينا من عصور الخلاف المذهبي، والتي ما نزال ندرسها أو ندّرسها في المعاهد والجامعات! لقد قام التحدي الحقيقي في وجه العقيدة/ الهوية التي تعيشها الأمة، والتي تشكل ضميرها وروحها، وتسري في كيانها.. والتي تعتمد عليها وتنطلق منها في حياتها اليومية أو في حركة هذه الحياة. أما العقيدة التراثية، أو تلك التي خلـّفها المسلمون في عصر سابق.. وأعني بها عقيدة المرجئة والخوارج، والأشاعرة والمعتزلة! أو عقيدة الأسماء والصفات، والجبر والاختيار.. والرؤية وخلق القرآن.. والتي يمكن أن نسمّيها أو نطلق عليها الفكر العقائدي الذي ورثناه عن الأسلاف، فليست هي المقصودة في هذا السياق، لأنها كانت خارج معركة التحدي إلى حد كبير، وربما كان لها دور سلبي في بعض الأحيان.

وفي جميع الأحوال فإن من واجبنا تسليط الضوء على التحدي الأول، تحدي العقيدة/ الهوية.. أو العقيدة التي تشكل أبرز ملامح هذه الهوية على الإطلاق.

نخلص من ثم إلى الحديث عن هذه التحديات التي قامت في وجه هذه العقيدة، والتي يمكن تصنيفها في عدة أنواع، مؤثرين الحديث عن التصنيف القائم على المباشر وغير المباشر.

**أولا:ً التحديات المباشرة:**

1. المذاهب المناقضة للتصور الإسلامي عن الكون والحياة والإنسان بوجه عام، والمتمثلة في المذهب المادي المعاصر (الماركسية ) والمذاهب الوجودية -على الجملة- وسائر الفلسفات التي ناقضت العقيدةالإسلامية أو الإيمان - في طرفيها أو ركنيها الرئيسيين: الإيمان بالله واليوم الآخر. أو العلة الأول والغاية الأخيرة- بغض النظر عن الأسماء والمصطلحات، أو التي حاولت أن تعطي تفسيراً لنشأة الكون وظهور الإنسان على نحو يناقض فكرة الخلق والإيجاد من عدم أو يُفضي إلى الإلحاد!

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن (المعاصرة) التي توصف بها هذه المذاهب ملك للحضارة التي أفرزتها.. والتي أعطت للمعاصرة بوجه عام، أو للعالم المعاصر سماته الراهنة.. فإن هذه المذاهب مثـّلت في الحقيقة تحدياً خارجياً أيضاً! الأمر الذي نستطيع معه أن نذهب إلى القول: إن الشريحة من المثقفين من أبناء العروبة والإسلام التي طلبت هذه المذاهب، أوتبنـّتها.. أو تأثرت بها منهجاً وقوالب تفكير وطرائقه، في بعض الأحيان، أو نتائج وأحكاماً في أحيان أخرى.. إنما كانت تطلب الحداثة والمعاصرة بالولاء والتبعية، أو المحاكاة والتقليد!

والمشكلة هنا هي أن هذه المذاهب المتناقضة بوصفها جزءاً من الثقافة الأوروبية.. وُلدت من خلال التفاعلات الاجتماعية وظروف البيئة والنشأة في عصر معين في تاريخ المجتمع الأوروبي، وقد تم نقل هذه المذاهب أولاً عبر الترجمة والتأثر المباشر، ثم عبر الإسقاط على التاريخ

العربي الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية بحثاً عن أسانيد أو شواهد لهذه المذاهب والآراء! أو استنباتاً لها في تربة الثقافة والفكر الإسلامي . وفي كلتا الحالتين لم ترْقَ إلى درجة القبول لدى عامة المثقفين، فضلاً عن محيط الأمّة وهويتها العقائدية! فبقيت معزولة أو مقصورة على فئة قليل من المثقفين! كما بقيت الفلسفة اليونانية والفكر اليونان مقصوراً على عدد قليل من الفلاسفة والمفكرين في عصر سابق! علما بأن الترجمة الأولى هذه؛ أو التي تمت في عصور المجتمع الإسلامى الأول، لم تشكل تحدياً على هذا النحو، لأسباب كثيرة، من أبرزها أن هذه الترجمة تمت في ظل مناخ السيادة و(التوظيف) أي سيادة الحضارة الإسلامية، وتوظيف الفلسفة أو المنطق للدفاع عن الإسلام وشرح حقائقه وثوابته. بالإضافة إلى أن الأجداد تعاملوا مع مكتبات ومتاحف! فالتراث اليوناني في جملته لم تكن تمثله في ذلك الوقت حضارة قائمة.. فضلاً عن أن تكون غالبة أو سائدة! أو ترقى إلى مستوى الحضارة العربية الإسلامية على أقل تقدير. في حين أن الدعوة إلى المذاهب المعاصرة اليوم تمت في مناخ (التوظيف) والرغبة في الانتقال.. بل وصل الأمر بالماركسيين في وقت سابق إلى درجة الارتهان الثقافي.. بل إلى ما هو أبعد من ذلك في بعض الأحيان. وقد ساعد موقع الغرب المتقدم، وصنعه للحضارة الراهنة على الدعوة لهذه المذاهب تحت عنوان المعاصرة واللحاق بركب الشعوب المتحضرة كما قلت! ولم يكتشف الماركسيون - وربما إلى وقت متأخر- أنهم كانوا يحطبون بحبل الآخرين! وأنهم خارج نطاق التاريخ! حتى لفظهم التاريخ!

والنقطة التي نشير إليها في هذا السياق: مدى التحدي الذي أصاب الهوية العقائدية، أو هوية الأمة في هذا الجانب! فقد بدا للناظر في ظل الأنظمة التي تبنـّت الفكر الاشتراكي أو العقيدة الماركسية - بصورة من

الصور- والتي تمكـّنت من قيادة بعض المجتمعات العربية في غياب الحرية والديمقراطية، أو من خلال إزهاق روح الحرية والديمقراطية والشورى.. لقد بدا للناظر أن هذه الهوية معرّضة لخطر التحوير والتبديل، ولكن الذي نراه أن الضرر الذي لحق بهذه الهوية لا يكاد يذكر! لأن تحدي العقيدة الماركسية السافر والمباشر حاصرها وقلـّل من خطورة أثارها.. بالإضافة إلى السخف الذي انحدر إليه الماركسيون, والمناقضة الحادّة التي وقعوا فيها في مسألة الإنكار والإلحاد, نظراً لمناقضة الإلحاد للفطرة الإنسانية السَّـويَّة.. فضلاً عن الفطرة التي وجدت تلبية لنوازعها في رحاب العقيدة الإسلامية على وجه الخصوص. الأمر الذي جعل من العقيدة الماركسية والفكر الماركسي شذوذاً أو حالة شاذة في العالم العربي والإسلامي .

وأياً ما قيل بشأن سلبيات الثقافة التي واكبت المجتمعات الإسلامية أو انحدرت إليها من عصر الركود، وأيا ما قيل كذلك بشأن الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة في هذه المجتمعات؛ والتي تم توظيفها أو استغلالها في الدعوة إلى الماركسية وسواها من العقائد والفلسفات.. فإن الأمر ما كان له أن يصل إلى حد العدوان على الهوية، أو القدرة على تحويرها أو تشويهها! بل لم يحصل ذلك - في أي مرحلة- على الرغم من الحاجة السياسية للاتحاد السوفيتي - وما صاحبها من قبل الماركسيين من سوء استغلال وتوظيف - وعلى الرغم من تصوير التأييد والنصرة، وربما الحل للقضية الفلسطينية بكل تأثيرها وثقلها في النفوس والعقول، من خلال حركة اليسار الأوروبي والإسرائيلي.. أو الاشتراكية الدولية.. أو وجودية سارتر.. إلخ..

وليس من واجبنا هنا أن نفصّل القول في هذه النقاط وسواها من نقاط التأثير.. لأن الذي يعنينا تأكيده هنا: سقوط هذا التحدي، العقدي أمام

العقيدة الإسلامية الهوية، وبيان أسباب هذا السقوط ، وتأتي الإشارة إلى حجم هذا التحد ي، وإلى ظروف نجاحه المساعدة (سياسياً ونفسياً واجتماعياً وحضارياً وثقافياً..)، في سياق الحديث عن مدى الفرصة التي انفسحت أمامه ليصيب نجاحاً أو طرفاً من النجاح. وجملة ما نراه في هذه النقطة - بكل ملابساتها المعقدة أن الأمة لو جاز لها أن تتنازل عن هويتها العقائدية - أو لو قدر لها أن تفعل ذلك في موقف أو زمان! لكان زماننا الذي أشرت إليه أولى الأزمنة بذلك .

أما أسباب هذا السقوط، أو بعبارة أخرى: أما أسباب نجاح الهوية العقائدية أمام هذا التحدي، فأركز منها على سببين، يتصل أولهما بالعقيدة الإسلامية، ويتصل ثانيهما بالعقيدة الماركسية.

**السبب الأول:**

قوة الصمود التي تمتعت بها العقيدة الإسلامية في عصور الانحسار والانكسار التي مرت بها الأمة الإسلامية في جميع مراحل التاريخ. وقد عزا الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله قوة الصمود إلى صفة الشمول، التي توصف بها هذه العقيدة، كما عزا إليها - في الوقت نفسه - قوة الغلبة التي تمتعت بما في عصور الفتح وسعة الانتشار.

والذي نراه أن حديث الأستاذ العقاد رحمه الله عن هذه العقيدة الصامدة التي اعتصمت بها الأمة في الشدائد، منصب على عقيدة القرآن، أو العقيدة التي تطالعها الأمة في كتابها الخالد.. والتي لم تنفصل عن ضميرها في يوم من الأيام. ويكفي عندنا في بيان حيوية هذه العقيدة، وأثرها الفاعل الذي ينقطع أن نشير فقط إلى الإيمان بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العُـلى.. بوصف هذه الأسماء والصفات تمثل فحوى العقيدة الإسلامية، لأنها تنطوي على حقيقة الإيمان بالله -الركن الأعظم للإيمان والاعتقاد- وعلى مضمون الصلة بين الإنسان وبين الله سبحانه

وتعالى. وغني عن البيان أن هذه الصلة الفاعلة المؤثرة هي مناط الاعتصام السابق.. لأن الله تعالى هو الملك، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر. ولأنه سبحانه هو الوهّاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، ولأنه جلّ شأنه هو السميع البصير، المحي المميت..

ولو أن المسلمين في هذا العصر، وفي سائر عصور انحسارهم، لم يتجاوزوا في فهم هذه الأسماء والصفات والتعامل معها، أقرب المعاني لكان ذلك كفيلاً بإبقاء جذوة الإيمان حيّة.. من جهة وقادرة على منازلة عقيدة الإنكار، وسائر العقائد المناقضة، والتعفية على أثارها.. من جهة أخرى.

والعجيب في هذه النقطة، أو اللافت للنظر حقاً: أن تنكـُّب المتكلـّمين، أو أصحاب الفكر العقائدي المشار إليهم، لهذه العلاقة المؤثرة بأسماء الله تعالى والصلة بها.. لم ينجح في قطع هذه العلاقة أو لم تؤثر سلباً على أقل تقدير. وذلك لسببين: الأول أن جمهور المسلمين كان يعقل هذه الصفات عن القرآن الكريم لا عن المتكلمين! وهذا يعني العودة بمعادلة هذه العلاقة إلى وضعها الصحيح.. أي المتمثل بعلاقة المسلم بهذه الصفات وما يوجبه عليه الإيمان بها.. أو كيف يكون مؤمناً بأن الله هو الرازق، والرقيب، والنافع؛ والمعزّ، والمجيب.. إلخ لا في حدود القلب واللسان، ولكن في ساحة العمل والابتلاء، وفي حركة الحياة التي شملتها هذه الأسماء والصفات جميعاً ومن غير استثناء! في حين أن المعادلة التي شغلت المتكلمين كانت تدور حول علاقة الصفات بالذات، أوالذات بالصفات!!

السبب الثاني: أن المتكلمين أنفسهم، حتى ولو كان بعض المسلمين ما زالوا يجادلون عن عقيدتهم من خلال مدارس علم الكلام القديمة..

وعلى الرغم من أن دراساتهم -أي المتكلمين- أحالت هذه العقيدة الحية الفاعلة، وتلك العلاقة السلوكية بأسماء الله تعالى الحسنى، والصلة بها جدلاً عقيماً.. فإنهم جميعاً أرجعوا علاقة المسلم بأسمائه تعالى الثلاثة: الرازق، المحيي، المميت، إلى وضعها الصحيح.. من خلال إجماعهم -على اختلاف مناهجهم- على أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى وحده!

ولقد كانت هذه العلاقة الإيجابية بهذه الأسماء الثلاثة كافية لصمود المسلمين، ولاعتصامهم بعقيدتهم. بل كانت كافية لبذل المال والنفس، أو للجهاد بالنفس والمال.. وصولاً أو طلباً للحياة الفضلى.. فضلاً عن أن الفقر والظلم الذي وقعوا فيه أو لحق بهم لم يشكل عندهم ذلك المناخ المناسب أو الكافي لقبول الفكر الماركسي.. كما شكل عنه غيرهم على سبيل المثال.

والذي يؤكد عندنا بقاء هذه العقيدة القرآنية حيّة فاعلة.. إن المسلمين اليوم على اختلاف أقطارهم باتوا يطلبون مستلزمات هذه العقيدة وتوابعها بعد رحلة الاغتراب والتغريب الطويلة خلال ما يزيد على مئة عام! وأعني بهذه المستلزمات والتوابع: الشريعة ونظام الحياة.. أو سائر عناصر الثقافة الإسلامية ومكوناتها من اقتصاد وتربية وأخلاق، واجتماع، وفنون.. إلخ بوصف هذه العناصر جرى فصلها أو العدوان عليها إلى حد كبير من خلال الفكر العلماني، أو التأثير العلماني.. وبوصف هذه العناصر أو المكونات مؤسسة على العقيدة ومنطلقة منها، أو بوصف هذه العقيدة تمثل قاعدة الثقافة الإسلامية. وقد لا يكون استدعاء هذه العناصر اليوم قد بلغ مداه -على الرغم من أن التغريب بات يفرض على المسلمين بقوة السلاح مرة أخرى- ولكنـّه بالغـُه بكل تأكيد.. وعقيدة ُالمسلم تهيب به أو تنهض به إلى التخلص من الفصام والتناقض بين العقيدة ونظام الحياة.

هذه خلاصة عن السبب الأول المتصل بالعقيدة الإسلامية من أسباب نجاح الهوية العقائدية للأمة العربية الإسلامية أمام التحدي العقدي الماركسي.

**أما السبب الثاني:**

وهو متصل بالعقيدة الماركسية ذاتها - فيما وراء شذوذ الإلحاد ومناقضته للفطرة الإنسانية كما قلنا- فيعود إلى أن الماركسية كانت قد بدأت بالانحسار منذ زمن بعيد.. وقبل أن يتم تزيينها لأبناء الأمة العربية الإسلامية بوقت طويل. إن السقوط الأخير للماركسية كان سقوطاً للنظام! أما الفكرة فإن انحسارها بدأ بُعيد عرضها على التطبيق! بل إن بقاء الدولة أو النظام، كما عبرتُ عن ذلك في بحث نشرته في عام 1980، كان مرهوناً بمدى التراجع عن المذهب أو الفكرة لا بمقدار التطبيق! وقلت: إنه لا ينبغي أن يؤخذ من قيام الدولة أو النظام دليل على (صلاحية) الفكرة! بل على العكس.. وأعجب لعقيدة ينجح النظام الذي يمثلها في البقاء والاستمرار بمقدار تخلـّيه أو تراجعه عن هذه العقيدة لا بمقدار تطبيقها! وقارن هذا بعقيدة الإسلام ونظام الإسلام لتعلم مدى سقوط تحدي العقيدة الماركسية والفكر الماركسي للعقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي!

فإذا أضفنا إلى هذه الملاحظة، ملاحظاتنا الأخرى القائلة إن هذا التراجع كان يتم لصالح الأوضاع السائدة في روسيا وأقاليم الاتحاد السوفييتي قبل أن يتمكن من قيادته الماركسيون - وأعني الأوضاع الاجتماعية والميراث الثقافي على وجه العموم- استطعنا أن نفسر انتعاش العقيدة الأرثوذكسية اليوم في روسية.. وبروز سائر السمات التي تؤهل المجتمع الروسي لأن يجد نفسه في سياق سائر المجتمعات الأوروبية الأخرى: ديناً وسياسة واقتصاداَ.. مرة أخرى. قلنا في بحثنا: العالم

المعاصر: مدخل إلى الحضارة البديل: بعد أن علّـلنا مطولاً رفضنا لفكرة العالم الثالث، انطلاقاً من ملاحظتنا لوحدة الشخصية الأوروبية والحضارة الأوروبية، قلنا: (وحين يتفكك النظام الاشتراكي أو تنحل الفكرة الماركسية أو تتحلل! فإن أمراً ليس بذي بال سوف يقع في المجتمع الأوروبي أو الحضارة الأوروبية، لأن انتماء (المجتمعات الاشتراكية الأوروبية) - إن صح التعبير- إلى هذه الحضارة لن يمسّ.. بل سيعاد تأكيده مرة أخرى..)، ص 75.

وقد نفهم من هذا سقوط العقيدة الماركسية في تحديها للعقيدة الدينية المسيحية - مع تأكيد الدور الذي قامت به المؤسسة الكنسية في هذا السقوط، ولو على صعيد الدولة والنظام- على الرغم من أنها ربما جاءت مبررة أو مفهومة بعض الشيء في سياق الشخصية الأوروبية المسيحية، وأوضاع المجتمع الأوروبي التاريخية، وعلاقته بالكنيسة، وميراثه الثقافي وعلى الرغم من بعض الأمور الأخرى. وهذا يعني أو يذكـّر مرة أخرى بسقوطها الأشد في تحديها للعقيدة الإسلامية، ومناقضتها للإسلام؟ الأمر الذي يجب أن يقطع - اليوم- أي تعلـّق غبي، كما يستحق أن يوصف، لعربيّ أو مسلم بهذه العقيدة.

2 - أما التحدّي المباشر الثاني الذي قام في وجه العقيدة الإسلامية فقد تمثل باستدعاء التأويلات الفاسدة، والمذاهب المنحرفة التي خرجت بالعقيدة الإسلامية عبر عصور التاريخ عن فحواها، أو حاولت تفريغها من هذا المحتوى. وقد قام بهذا الاستدعاء الماركسيون وبعض أصحاب الفكر المترجم أو المنقول، في الأعم الأغلب؛ التماساً لبعض الأسانيد - من واقع تاريخ المسلمين- لهذا الفكر.. أو تأكيداً لبعض مقولاته وتفسيراته. كما قام بهذا الاستدعاء، أو البعث والإحياء - في أحوال قليلة- بعض الباحثين الذين كان لهم هوى في هذا التحدي، أو في هذا التشويه العقائدي، إنْ صح التعبير، سواء

أكان لهم انتماء تاريخي لبعض الفرق التي تبنـّت هذه التأويلات في التاريخ، أم لم يكن(1). ويبدو أنهم فعلوا ذلك رغبة في تقليص دور العقيدة الدينية، أو للتشكيك في صلاحية الدين - بهذه- التناقضات والمفهوم المتعاضة - ليكون أساساً للنهضة مرة أخرى(2).. الأمر الذي يمهـّد للدعوة إلى العلمانية، أو يصبّ فيها في نهاية المطاف.وربما كان الباعث على هذا، من الأصل، الرغبة في التبشير بالفكر الأوروبي، أو الانتقال بالمجتمعات العربية الإسلامية إلى أحضانه ومدارسه المختلفة! نظراً لعدم قدرة هذه التأويلات على الصمود أمام العقائد والفلسفات المعاصرة بوجه عام، وأمام العقيد ة الإسلامية القرآنية بوجه خاص.

وعلى الرغم من أن أثر هذا التحدي، الذي يمكن عدّه تحدياً داخلياً، كان محدوداً إذا ما قيس بالتحدي السابق، وخصوصاً بُعيد عصر الصدام مع الغرب - ولكنه قد لا يكون كذلك بعد إفلاس المذاهب الأوروبية السابقة، بدءاً من انحسار الفكر الوجودي في وقت مبكـّر، وانتهاءً بالسقوط الاشتراكي الأخير- فإن هذا التحدي قد يجري تأكيده أو التركيز عليه مرة أخرى وإن كان سقوطه في جميع الأحوال لا يحتاج إلى تأكيد، خصوصاً إذا ذكرنا هزيمته السابقة من جهة، وعدم قدرته على الصمود أمام انتشار المعرفة والثقافة، وشيوع النزعة العقلية والعلمية..

(1) انظر: على سبيل المثال أعمال عارف تامر، التي حاول فيها نفخ الروح في المذاهب الباطنية. وانظر: بوجه خاص مقدمته لكتاب (أساس التأويل) التي تحدث فيها عن نظرية التأويل عندهم معاشر الإسماعيليين، التي جاء فيها بكل عجيب وغريب!)2) أو لنفي أن تكون العقيدة الإسلامية هي هذه التي يدعو إليها المصلحون من خلال الكتاب والسنة، وبقواعد اللغة والعقل، بل يمكن أن توصف بها كذلك (عقائد) بعض الفرق الغالية السابقة، التي ينتظمها السلك الباطني، أو القول بالظاهر والباطن في تفسير القرآن الكريم.

إلى جانب الإلمام باللغة العربية وبشروط تفسير القرآن الكريم في هذا العصر.. من جهة أخرى.

**ثانياً: التحديات غير المباشرة:**

أما التحديات غير المباشرة التي واجهت هوية الأمة في عقيدتها وقيمها.. فنريد بها تلك التحديات التي لم تشكل مناقضة لمفردات هذه العقيدة وأحكامها - بوجه عام- ولكنها أثـّرت على منزلة هذه العقيدة ومكانتها في بناء الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية.. وذلك بتقليص دورها، أو محاصرة أثرها، أو بإزاحتها عن موقعها الذي تحتله في هوية المجتمع العربي المسلم .

وغني عن البيان أن هذه الإزاحة أو هذه المحاصرة جاءت في ركاب .بعض الشعارات والمقولات، أو بعض المذاهب والفلسفات، لعل أبرزها وأخطرها : القومية والعلمانية. وقد أفردنا الحديث عنهما في دراسة أخرى مستقلة ومعمّقة بعض الشيء! ونكتفي هنا بالإشارة إلى أبرز نقاط التحدي الذي واجهته الهوية العقائدية من خلال الطرح القومي والتطور العلماني.

**1- التحدي القومي:**

ونبادر إلى القول إن التحدي الذي واجهته العقيدة الإسلامية من خلال الفكر القومي، ما كان أن يقع في بعض الحالات لولا ملابسات النشأة المعروفة في أواخر العهد العثماني.. وما صاحب هذه النشأة من ردود فعل حملت عليها سياسة التتريك.. في الوقت الذي عملت فيه الإرساليات والمدارس الأجنبية على تزيين عصر القوميات الأوروبي.. في زمن التفوق الأوروبي والركود الإسلامي. وقد كان لولادة الفكرة القومية على أيدي الأقليات الدينية في النطاق العثماني أسبابه العلمية التي لا تصل إلى حد المؤامرة أو لا تنطلق منها.. كما قلت في الجامعة الأردنية منذ ما

يقرب من عشرين عاماً خلت! ولكن الذي نضيفه الآن أن هذه الولادة تركت ظلالها على مسألة التحديات التي نتحدث عنها!

وفي جميع الأحوال، فإن هذا التحدي - القومي- لم يقع في جميع الصور، أو في جميع الحالات، أو من خلال كلّ الطروحات، ولكنه وقع في حالتين بارزتين: الأولى: حين وصلت القومية عند بعض الغلاة إلى أن تكون عقيدة تغني عن سائر العقائد! أو ديناً يحل محل الدين، بوصفها دين العصر! أو ديناً له كتابه، كما أن للمسلمين قرآنهم وللنصارى إنجيلهم.. قال بعضهم: (القومية بالنسبة إلينا نحن القوميين العرب دينٌ له جنته وناره، ولكن في هذه الدنيا)، وقال آخرون: لا ينهض العرب حتى تصبح القومية العربية أو المبدأ العربي ديناً يغارون عليه كما يغار المسلمون على القرآن الكريم، والمسيحيون على إنجيل المسيح الرحيم)(1)

والحالة الثانية : حين قـُرنت القومية، أو قـُرنت بها مذاهب اجتماعية وفكرية مناقضة للعقيدة الإسلامية، أو حين أعطيت القومية بعض مضامين هذه المذاهب، كالعلمانية والماركسية. ولطالما كثر الحديث عن المضمون العلماني للحركة القومية، مرة.. وقرن بين النضال القومي والنضال الطبقي مرة أخرى.. وإن كان الحديث عن هذا النضال لا يعنينا أمره، ولكن الذي يعنينا في هذه العجالة ربط آخر.. هو الربط بين القومية والاشتراكية.. أو بعبارة أدق: الربط بين الثقافة القومية الاشتراكية.. حتى إن بعض الأحزاب القومية جعلت مما أسمته (الثقافة القومية الاشتراكية)، مقرراً علمياً جامعياً عاماً أو مشتركاً بين جميع الطلبة.. في الوقت الذي تدِّرس جامعات الوطن العربي: الثقافة الإسلامية، كما هو معلوم تعبيراً عن

(1) راجع كتاب: المجتمع الإسلامي المعاصر للأستاذ محمد المبارك، ص 117، دار الفكر 1980.

هوية الأمة والمجتمع! أن الثقافة القومية الاشتراكية هذه باتت تشكل خروجاً عن هذه الهوية وتحدياً لها، لا تأكيداً لها أو تعبيراً عنها! وإن شئنا قلنا: إن هذه الثقافة الجديدة باتت تشكل الرغبة في مواصفات المجتمع العربي الذي ترغب هذه الأحزاب في بنائه! أو بعبارة أدق: في شرخه عن جسم الأمة العربية الإسلامية.. بوصف الإسلام يمثل المشروعية العليا في حياة العرب.. الذي لا يمكن للعرب أن يجدوا أنفسهم في غير رحابه مرة أخرى.. مهما طال البحث وكثرت الشعارات، وتعدّدت الولاءات والانتماءات.

ولا ندري على أي حال ما مصير العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية في هذا الطرح العجيب! أو في هذا الطرح الذي يتناقض مع مقومات القومية ذاتها إذا كانت الحلقة الثانية التي تلي الحلقة القومية عندهم هي الاشتراكية أو الحلقة الاشتراكية؟ أو إذا كانت الثقافة الاشتراكية أقرب إلى الثقافة القومية من الإسلام أو من الثقافة الإسلامية! وغني عن البيان أن هويتنا الثقافية: قومية إسلامية.. وأن هويتنا الحقيقية: عربية إسلامية. ومن ثـَمَّ فإن أي ربط للعربية أو العروبة والقومية بغير الإسلام، أو أي طرح يتجاوز الإسلام إلى غيره من العقائد أو المذاهب أو الفلسفات أو النظم الاجتماعية يعدّ نقضاً للطرح القومي أو للفكرة القومية ذاتها، أو خروجاً عليها.. خصوصاً إذا ذكرنا (أن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية) - بحسب عبارة ساطع العصري- اللغة والتاريخ..

وهذان العنصران أو الأساسان: اللغة العربية، والتاريخ العربي الإسلامي.. ليسا في نهاية المطاف أو في التحليل الأخير - كما أوضحنا في بحثنا المشار إليه- شيئاً مفصولاً عن العقيدة الإسلامية والثقافة الإسلامية.. أو عن الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة!

وربما كان السبب في هذا الربط - المنكور- بين القومية والاشتراكية يعود إلى أن بعض الطروحات القومية التقت عند تفريغ القومية من محتواها الثقافي العربي الإسلامي.. مما مهّد لربطها بعجلة ثقافات أخرى منقولة أو منحولة! وربما ساعدهم على ذلك أن القومية في الأصل قضية وجود، أو مسألة انتماء! وقد يحق لنا عند هذه النقطة أن نلاحظ أن القومية - في هذه الحال- لم تكن أكثر من جسر عبرت عليه الماركسية!واسمحوا لي أن أقول، مع شديد الأسف، إن هذه النتيجة ساهم في الوصول إليها بشكل من الأشكال الباحثون الذين عملوا على التقليل من أهمية ارتباط العروبة بالإسلام، أو الذين عملوا على إضفاء الطابع التاريخي على هذه الصفة.. أو الذين حاولوا جاهدين لجعل الإسلام نفسه صورة من صور العبقرية العربية، أو من نتاجها إلى حد كبير.. كما ساهم فيها كذلك بعض المؤرخين الذين حاولوا تضخيم تاريخ الجاهلية العربية على حساب التاريخ العربي الإسلامي، أو مع إبراز مدى الخلافات التي حصلت في تاريخ الإسلام.. أو الذين حاولوا أن يرتقوا بسند القومية العربية إلى تاريخ الجاهلية... وأن يمروا به بعد ذلك بعض المحطات في التاريخ الإسلامي.. ولو وصل الأمر إلى وضع السلاجقة - مثلاً - الذين قاوموا الغزو الروماني والغزو الصليبي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، مع الصليبيين في قائمة العدوان الخروج على القومية العربية والأمة العربية . . ويالعجائب المفارقات!

ويمكن أن نضيف إلى هاتين الحالتين البارزتين اللتين شكـّت فيهما القومية تحدياً للهوية العقائدية سائر الحالات الأخرى التي أخلّ فيها الطرح القومي برابطة العقيدة، أو بأخوة الإيمان والاعتقاد التي عقدها لله تعالى بين المسلمين جميعاً بقوله: (إنـَّمَا المُؤمِنـُونَ إخـْوَةُ).

**2- التحدي العلماني:**

أما العلمانية فقد فصلت في واقع حياة الأمة العربية الإسلامية، أو في حياة المجتمعات العربية الإسلامية إلى حد كبير بين (العقيدة) و(نظام الحياة )، بغض النظر عن الفروق التي قامت بين هذه المجتمعات في فهمها للعلمانية وتعاملها معها.. أو بغض النظر عن مدى الإعلان السياسي عن تبنيها وتطبيقها.

فإذا أضفنا إلى ذلك: الأثر الإيجابي للعلمانية على الصعيد الأوروبي في النهضة والتقدم العلمي.. ومدى حاجة مجتمعاتنا إلى تقدم مماثل.. أدركنا مدى الخطورة في تحدي العلمانية لهويتنا العقائدية لأنها لا تمسّ جوهر (العقيدة)، ولا تناقض أركان الإيمان، بل لا تعارض من حيث الأصل والنشأة حرية الاعتقاد من وجه، في الوقت الذي باتت فيه مطلباً -أو مخرجاً- عند كثير من المثقفين.. من وجه آخر! حتى تم عندهم الربط بينها وبين (التقدمية) في بعض العناوين أو الشعارات.. فزعم من زعم أنه يمثل (الاتجاه التقدّمي العلماني)، وإن كان من الملاحظ أن العلمانية مشت غالباً في ركاب الدعوة القومية أو الفكر القومي لأسباب لا مجال للحديث عنها الآن، وأن هذا الفكر شكل تحدياً لا من خلال العلمانية التي مشت في ركابه فحسب، بل من خلال بعض طروحاته الخاصة التي أشرنا إليها قبل قليل.

وعندما يعود المرء ليتفحص هذا التحدي العلماني القائم على الفصل، أو القطع المذكور بين العقيدة ونظام الحياة، يجد أنه تحدِّ ثقافي شامل وليس تحدياً عقدياً فحسب.. وعلى الرغم من أن الحديث في هذا التحدي الثقافي ليس موضوع بحثنا الآن؛ فإنني أشير منه إلى نقطة جوهرية واحدة تبدو ضرورية لفهم هذا التحدي الشامل أو تفسير من وجه، وتمهد في الوقت نفسه للحديث عن صورة التحدي العلماني الخاص بالعقيدة الإسلامية وحدها فيما نقدر.

الثقافة الإسلامية بفروعها أو مكوّناتها المختلفة، من عقيدة وعبادة وشريعة وسياسة واقتصاد وتربية وأخلاق واجتماع.. أصولها ومنطلقاتها - وثوابتها - دينية جاءت في الكتاب الكريم ونطقت بها السنـّة المطهرة. وحين فهمنا من خلال الطرح العلماني، المنقول أو المستعار، أن (الدين) صلة روحية، وأن دائرته لا تتعدى البعد الفردي للإنسان، أو لا تتعدى حياته الشخصية المتمثلة في علاقته مع ربّه سبحانه وتعالى.. فكأننا وضعنا في هذه الحال (العقيدة) محل (الدين) أو كأننا بعبارة أدق: قصرنا مفهوم (الدين الإسلامي)، أو الإسلام، وليس أي (دين) على (العقيدة) أو نزلنا بمفهوم الإسلام الشامل إلى العقيدة وحدها، على الرغم من أن العقيدة تمثل قاعدة الثقافة وأساسها المكين!

وهذا هو أساس أو منطلق الفصل السابق الذي نتحدث عنه بين (العقيدة) - أو الدين بهذا المفهوم الجديد- وبين سائر المكونـّات والعناصر الثقافية السابقة. فإذا تذكرنا أن الشخصية الإسلامية تقوم بالثقافة الإسلامية، أو تعد صورتها التطبيقية أو السلوكية المكافئة؛ علمنا كيف أن التحدي العلماني الثقافي أدّى في الواقع إلى تفريغ الشخصية الإسلامية من محتواها الثقافي؛ الأمر الذي مهـّد لملئها بأقوى النماذج الثقافية القائمة في عالم اليوم، وهي الثقافة الأوروبية بفروعها المختلفة السابقة - من اقتصاد وإعلام وتربية وقانون.. إلخ- وهذا هو أساس التغرب أو التغريب الذي جاءت به الدعوة إلى العلمانية أو مشى في ركابها! ! بل نذهب في تعليل هذه الظاهرة أبعد من ذلك.. فنقول، أو نضيف: إن هذا الملء جاء كذلك أو في الوقت نفسه، من خلال ارتباط هذا النموذج الثقافي نفسه بالعلمانية الأوروبية، التي تم نقلها أو التبشير بها . . أي كأننا طلبنا النموذج الثقافي الأوروبي، أو دُفعنا في مناخه.. من حيث نظرته إلى (الدين)، ومن حيث نظرته إلى (الحياة)، أو من حيث (منهاجه) في الحياة!

ونصل هنا إلى الحديث عن التحدي الذي قادته العلمانية في وجه العقيدة الإسلامية، أو وقعت فيه. وذلك من خلال النقطتين التاليتين:

الأولى: أن العلمانية نازعت الإسلام سلطانه الثقافي، وسلبت المسلمين حقهم في إقامة نظام حياتهم وفقاً للإسلام، بوصفه عقيدة وشريعة ومنهج حياة! وقد وقعت هذه المنازعة - كما أوضحنا - من خلال تعارض العلمانية مع الأصول الدينية للثقافة الإسلامية في مختلف فروعها، أو مع الفحوى الديني (الإسلامي) لهذه الفروع! وقد كان في وسعنا أن نضيف: بغض النظر عن موقفها - أي العلمانية - من قضية العقيدة والإيمان! لولا أن هذا الموقف بات في نهاية المطاف سلبياً.. بل بات يشكل تحدياً حقيقياً للهوية العقائدية، لأن هذه العقيدة لها مستلزماتها وتوابعها الثقافية -التي جاءت العلمانية لمحاربتها وإقصائها- وبقاء هذه العقيدة سليمة سوف يدفع بأبناء الأمة الإسلامية إلى استكمال نمط حياتهم وسلوكهم وفقاً لنظام الإسلام! الأمر الذي استتبع العدوان على العقيدة أو التشكيك فيها، أو التعفية على آثارها، من خلال جميع فلسفات التشكيك التي عرفتها الثقافة الأوروبية، أو عرفها الأوروبيون خلال الثورة العلمانية - إن صح التعبير - وقد أثبتت كل النماذج العلمانية التي فرضت على العالم الإسلامي هذه الحقيقة، فلم تكن (حيادية) حتى نحو العقيدة الشخصية أو الاعتقاد الفردي، والسلوك الشخصي عند المسلمين.

أما النقطة الثانية: فهي أن (فحوى) العلمانية، أو خلاصتها الحقيقية أو الأخيرة عند دعاتها من أبناء الأمة العربية الإسلامية، لا تعدو أن تكون في واقع الأمر إيقاعاً للمماثلة أو تحقيقاً للتشابه بين المجتمعات الإسلامية والأوروبية، أي تحقيق (صورة) التغريب الذي أشرنا إليه! ولهذا فإن المجتمعات الأوروبية قد تقبل وتقرّ من مسائل العقيدة الفردية والسلوك الشخصي ما لا يقرّه أو يقبل به العلمانيون المتغربون - والمغرّبون- في المجتمعات الإسلامية، فلا ضير على المرأة أن تلبس في أوروبة ما تشاء،

ولكن العلمانيين من المسلمين لا يقبلون منها بغير نزع الحجاب! أكتب هذا وبين يدي خبر في صحيفة يقول (إن المنشور رقم 108الذي يمنع ارتداء الحجاب قد تعدّى العمل به الإدارات والمعاهد ليصل الأمر إلى تمزيق الحجاب في الشوارع من طرف مليشيات الحزب الحاكم) في بعض دول المغرب العربي! ولا يتسع المجال لأكثر من هذه الإشارة في هذا المقام .

وإذا نظرنا أخيراً في هذه التحديات غير المباشرة، القومية والعلمانية، لما صعب علينا ملاحظة أن المد الذي تمتعت به بعض الوقت أخذ بالانحسار عن هوية الأمة! أو للاحظنا مدى اطراد نجاح هذه الهوية في امتحان التحدي القاسي الذي تعرضت له، على الرغم من بعض المظاهر السلبية الصاخبة التي ما تزال تعزل وجه هذه الهوية..

- فالقومية لم تغن عن العقيدة، ولم تستطع أن تحل محل الدين.. على الرغم من تلك الصيحات التي تدعو إلى الإشفاق من هذا الجهل بالدين والقومية جميعاً! والتي ولدت ميتة في الواقع وحقيقة الأمر. ولا نبعد إذا قلنا إن القومية التي تبرأ من الزندقة والإلحاد لم ينجح بعضهم في اتخاذها سُلـّماً للزندقة والإلحاد يشوّه به هوية الأمة، ويسيء إلى قيمها! فضلا ًعن أن القومية بطبيعتها، أو من حيث كونها وضعاً من أوضاع الخلق (وَجَعَلـْنـَاكُمْ شُعُوباً وَقـَبَائِلَ لِتـَعَارَفـُوا)(1) لا تشكل تحدياً لهذه الهوية. ولا تناقضها أو تتعارض معها! أما اقترانها بالمذاهب التي أشرنا إليها؛ فعلى الرغم من أن طبيعتها لا تستلزم مثل هذا الاقتران؛ فإن بعض هذه المذاهب، وأعني به الماركسية، قد سقط وخرج من نطاق التاريخ، فكراً ونظاماً، أو ديناً ودولة.. كم أشرنا في هذا البحث.

- أما العلمانية التي ما تزال الدعوة إليها قائمة تحت عناوين شتى، وبمعاذير وأسباب مختلفة داخلية وخارجية، وسياسية وثقافية.. فإن

(ا) الحجرات، 13.

وجهها القبيح في العالم الإسلامي لم ينجح في إخفاء هوية الأمة أو في التعفية عليها.. على الرغم من هذه الفرصة الطويلة جداً التي أعطيت لها.. وما اكتنف الأمة خلالها من الضعف والتمزق والاستلاب الحضاري، وما وقع عليها وعانت منه من الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي. وقد تمثل هذا الوجه القبيح للعلمانية، كما بسطنا فيه القول في دراسة أخرى، في التغريب والتغرّب، وفي التجاوز والعدوان، وفي الطائفية وتكريس التخلف(1)! بل تمثل هذا الوجه باختصار شديد في كون الدولة الحديثة - القطرية أو الدكاكينية - التي مثـّلت العلمانية ودعت إليها والتي باتت تحمل عليها شعوب الأمة بسطوة الإرهاب، وقعت في (تناقض مع الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة)، أي الإسلام بوصفه المؤسس للاجتماع السياسي على حد تعبير الباحث الحصيف الأستاذ برهان غليون. يقول الدكتور غليون: (الدين - في الإسلام- هو المؤسس للاجتماع السياسي.. بقد ر ما أصبح الاشتراك في العقيدة أساس هذا الاجتماع بدل الخضوع للدولة والمشاركة في عبادة السلطة) ويضيف: (إن انتقال الدولة الحديثة من أوروبة إلى المجتمعات العربية الإسلامية جعلها أداة استلاب جماعية، ورمزاً للروح القهرية والأجنبية بحيث نجد الدولة الحديثة في تناقض مع الدين الاجتماعي المكوّن للأمة والدولة)(2).

(ا) انظر كتابنا: القومية والعلمانية: مدخل علمي. مؤسسة الرسالة، بيروت 1992.(2) نقد السياسة، الدين والدولة. برهان غليون. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1991.

1. الذاريات، 20-21 [↑](#footnote-ref-1)
2. فـُصلت، 53 [↑](#footnote-ref-2)